رسالة ميلاديّة من القدّيس أمبروسيوس (أوبتينا)

لمناسبة ميلاد عام 1870، كتب الشيخ لأبنائه الروحيّين حول المعنى السامي للتجسُّد الإلهيّ

"يا طالبي الحِكمة في الربّ! برحمة الله وطول أناته، نَصِلُ مرّةً أخرى إلى الزمن السنويّ لعيد ميلاد المسيح.

وبدلاً من المعايدات البسيطة المعتادة، أودُّ أن أقول لكم بضع كلماتٍ عن السرّ العظيم لهذا العيد المجيد. تدعو الكنيسة، في ترانيمها، المؤمنين إلى التأمُّل بذهنٍ سامٍ في مجيء السيّد، وإلى الابتهاج سرّيًّا، بقلوبٍ نقيّة، في مأدبةٍ غير مائتةٍ داخل المغارة الوضيعة. فالحاضر في كلِّ مكانٍ قد طأطأ السموات ونزلَ إلى الأرض من دون أن يغادر حضنَ الآب؛ غير المنظور صار منظورًا؛ كلمة الله وابنه المساوي له في الأزليّة وعدم الابتداء صار ابنًا للعذراء؛ الذي قبل الدهور وغير المدرَك يُولَدُ الآن من العذراء طفلًا؛ مَن لا يُدنى منه تحتضنه الآن طفلًا ذراعا أمٍّ عذراء؛ الذي يوشِّحُ السماء بالغيوم يُلَفُّ الآن بالأقمطة كطفلٍ؛ الذي خلقَ كلَّ شيءٍ بحكمة، يُوضَعُ الآن طفلًا مقمَّطًا في مذودٍ لبهائم غير عاقلة، ليُخلّص البشر من عدم التعقُّل؛ الذي يغذّي الكلّ يَرضعُ الآن طفلًا لبنَ أمّه.

يا له من سرٍّ رهيب! يا لها من أمورٍ تفوق الإدراك! كيف صار الله إنسانًا من دون أن يطرأ عليه تغيير، وهو يجعل الإنسانَ إلهًا، كما تنبّأ النبيّ: «أنا قلتُ إنّكم آلهةٌ وبنو العليّ كلُّكم» (مزمور 81: 6). ولكن، يا لإثميّتنا! فنحن، كبشرٍ، نموت. يا لبُطلاننا وتجاهُلنا للبنوّة الإلهيّة! إنّنا نحبُّ عبوديّتنا للأهواء ومشيئتنا الشرّيرة، ونحني أعناقنا طوعًا وكرهًا لنير العدوّ. يا لَعمانا وظلمتنا!

عندما سمعَتْ آذانُ الرُّعاة المبارَكة الملائكةَ يُرتّلون: «المجدُ لله في الأعالي» (لوقا 2: 14)، حملَتْ بشارةَ السلام إلى الأرض والمسرّة إلى الناس. وذُهِلَتْ أعيُنهم حين عاينَت الحملَ البريء من العيب الذي خرج من أحشاء مريم. طوبى لجميع الذين يحفظون مشيئة الله وسلامه الذي يفوق العقول البشريّة.

جاء المجوس المبارَكون والحُكماء من بلادٍ بعيدةٍ ليَسجدوا للمولود من العذراء، مُقدِّمين له هدايا لائقة: ذهبًا لأنّه الملك، وبخورًا لأنّه الله، ومُرًّا لأنّه الذي يموت وهو غير مائت. طوبى لكلّ الذين يسجدون له باستحقاقٍ بالروح والحقّ، مُقدِّمين له قرابين بحسب قدرتهم: كذهبٍ، قليلًا من أعمال الرحمة والبرّ؛ وكبخورٍ ولُبانٍ ذكيّ الرائحة، التسابيح والصلوات النقيّة، صلوات التوبة والاعتراف؛ وكمُرٍّ عَطِر، تذكُّر آلامه بشُكرانٍ، وإكرام جروحه المُحيية بتوقير، هو الذي تجسّدَ وصُلِبَ بالجسد من أجل خلاصنا.

أمّا نحن المتوانون والمتبلّدو المشاعر، وأنا أوّلُكم، فلا نستطيع أن نرفع عقولنا فوق الأرض، وأن نبتهج بقلوبٍ نقيّةٍ بالوليمة غير المائتة في المغارة الوضيعة. وإذ نتواضع ونوبّخ أنفسَنا، ليتنا ننتبه بحرارةٍ وورعٍ إلى القراءات والترانيم في الكنيسة، ونرتشف التعزية والاستنارة والخلاص كما من ينبوع الحياة والخلود، وذلك من خلال رحمة وتحنُّن ذاك الذي تجسَّدَ من أجلنا، ابن الله، الذي له المجد والكرامة والسُّجود، مع أبيه الذي لا بداءة له، وروحه القدُّوس الصالح والمحيي، الآن وكلّ أوانٍ وإلى دهر الداهرين. آمين.

يا من وُلِدتَ من العذراء بصورةٍ لا يُنطَق بها، ارحمنا نحن الذين قد فترَتْ قلوبُنا، بصلوات أمّك الكلّيّة الطهارة وجميع الذين أرضوك!".

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Saint Ambrose of Optina (1870). “Christmas Letter”, from Fr. Sergius Chetverikov, *Elder Ambrose of Optina*, Published by St. Herman of Alaska Brotherhood, 1997, 188-9. In *OrthoChristian*.